

موانع الابتكار في أدبنا الحديث

للاستاذ محمد يونس

إنه ليسعدنا حقاً أن يكون قريباً ذلك اليوم الذي
نشر فيه من جمرة كتابنا أنهم ألبسوا الابتكار محل
المحاكاة وأبدعوا فيها يكتبون ابتداءً فيه غناء وإغناء
للأدب العالمي العام
الدكتور منصور فهمي
مجلة المصرية

كان حديث الدكتور منصور فهمي في مجلة المصرية
ذا شجون ، فقد تناول فيه الأدب العربي الحديث والآداب
بالنقد اللاذع ، وصورهم بصورة المقلد المفتون ، وعراهم
من أردية المجد التي اكتسرها بعد الكفاح الطويل
وأنا وإن كنت إلى حد ما أؤيد الدكتور في أن أدبنا الحالي

لم تود بنا إلى حب جارية مملوكة .

فبرزت رأسي وأعدت نفس السؤال : ولكنها ملك
يملك ؟

فقال : هذا صحيح . إن جسمها ملكي ولكن روحها
ليست ملكاً لي . إني لا أبغى منها ذلك الجسد ولا متعة الشهوة
وحدها . بل أريد أن تبادلني حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص .
وراحت الدموع تنحدر من عينيه وتسيل فوق خديه ،
ورمقته بنظرة فيها كل معاني الشفقة والثناء لحالته ، فهو والد
وله أطفال وزوجتان أخشى عليهم جميعاً عاقبة هذا الحب
الجديد .

وأعقب ذلك صمت طویل ، تذكرت في خلاله مواقف
الحب وسلطانها على النفوس ، ثم رأيت أن أغادر الدار
فودعت مضيقى وسرت اجتاز شوارع مكة الضيقة ، حتى
وصلت إلى الميدان العام وكانت تحترق قافلة يحدوا أصحابها بغناء
شجي مملوءة :

من ذا (بلى) إن بكيت صباية الدمع دمعى والعيون عيونى

عمر الكريم جبرمانوسى

أدب تقليد ومحاكاة لأدب ابتكار وإبداع . فإني أخالفه في تحديد
أدب المحاكاة عندنا وفي قيمة هذا الأدب ، ثم لا ألقى اللوم
كله على الأدباء أنفسهم ، لأن الدوافع إلى المحاكاة كما سبى
القارى . قريبا أقوى من أن يغلبها الكاتب اللبيب

— كان كلام الدكتور عن الأدب عاماً شاملاً كل أنواعه ،
ولكن من الظلم ونحن نلتصق طابع التقليد على أدبنا الحديث
أن نغفل طائفة خاصة من الكتاب برعت في الابتكار
وأعنى بها كتاب المقالة . فالمقالة خطت في الأدب العربى
الحديث خطوات واسعة وأصبحت تتحدث في موضوعاتها
الخاصة وأهدافها تقرية حديثاً وصل حد الابتداع عند
كثير من الكتاب . وهى ذى المقالة العلمية في مصر لا تقل
عنها في البلدان الغربية إن هذه المقالات التى تقدمها إليك الصحف
والمجلات تحركك معها إلى حيث تريد من حيث لا تريد
— أنت ، وتفهمك مطالبها بكل وضوح ، هى غر الأدب الحديث .
وكثيرون لدينا برعوا في حيل الاختراع وفي مفاجأة القارىء
واللعب به وبكل ما يجعل للمقالة العربية مجدها وشخصيتها . إلى
هنا يقف أدباؤنا عن الابتكار ، وما بقى من أنواع الأدب العربى
أكثره خلوه من الابتكار ، ولكن خلوه من الابتكار لا يعنى فقره
في الإجابة ودقة الانتاج ، فأدب المحاكاة أدب قائم بذاته له قيمته
وفائدته ، وله - وهذا ما نريد الإشارة إليه في هذا المقال -
أوانه ، ولا بد للأدب كما للمجتمعات البشرية من المرور في
أدوار تاريخية مختلفة يتبع فيها سنة التطور ومنطق التدرج
وهو قانون ثابت لا تفيد معه ثورة الأديب ، ولا ألقاب
— الابتكار والتجديد التى تمنع له بغير حساب

وهذا الدور في الأدب العربى ، دور محاكاة ونقل نتجه
فيه العبقريّة راضية أو غير راضية إلى النقل عن أدب الغرب
أو إحياء ما اندرس من أدب العرب ، وهو تيار جارف لا يقف
أمامه كاتب مهما كبر ، ولذلك فشلت محاولات الابتكار عند
كبار أدبائنا . هذه محاولات شتى قام بها كثيرون منهم في
السنوات الأخيرة وأرادوا أن يظهروا بها الابتكار والابداع .
ليقرأها القارىء جيداً وليحكم عليها من غير مناجاة ، ألا يرى
عليها الهزال والشحوب ؟ فيدرك أن هذه الجهود المبثورة

لاتناسب اسم أولئك الكتاب وما لهم من مجد عظيم نالوه عن طريق النقل .

وما يقال عن التثريقال عن الشعر أيضاً . ولقد أدرك شوقي — رحمه الله — في أواخر أيامه أن خير ما يختم به إنتاجه قصص شعرية ، عجز عن أن يستمدّها من المحيط الذي يعيش فيه فرجع إلى كليوباتره في التاريخ المصري ومجنون ليل في التاريخ العربي ، وكأن الحياة الدارجة ما استطاعت أن تلهم الشاعر الموهوب موضوعاً لرواية قوية تقتزن بحياة هذا الجيل ولا عيب على هؤلاء الأدباء أن ينجحوا في دور الناقل ويخفقوا في دور المبتكر ، ولا ينقص من قيمة جهدهم أن يبرز في النقل وحده ، فالأدب المنقول يؤدي واجباً كبيراً في خدمة الأمة العربية ويشغل حلقة لا بد منها للوصول بين الماضي والمستقبل ، هي قسمة لا بد منها وتوزيع لنوع الإنتاج بين أدباء المستقبل وأدباء اليوم الذين كان من حظهم أن يأتوا في هذا العهد ، عهد النقل فلا يسطع نجمهم إلا فيه ولا يذهب تقيدهم به سناء عبقريتهم

وهنا من حق القارئ أن يسألني : لماذا يعجز أدباؤنا عن الابتكار ؟ أهو كل منهم كما يقول الأستاذ المازني وفيهم النشاط الجحم . أم فقر في المواهب . وفيهم العبقرى الموهوب أم فقر في المحيط وهو عامر بثقى الصور والمفاجآت ؟ وقد ثار مثل هذا التساؤل من حين قصير بين أدباء الانكليز وتناول ناقدان كبيران البحث عن أسباب جمود الأدب الانكليزي الحديث (ولا سيما في ناحية القصة التي تحتاج أكثر ميادين الأدب الغربي) وتأخره عن الأدب الأمريكي الذي أصبح يخطو خطوات واسعة وينتج آثاراً مذهشة .

قال أولهم : إن الابتكار — وليد ما أسماه شعوراً بالاستغراب يأخذ على الكاتب أنفاسه ويدفعه في مجال الابداع ، ومتى عجز المحيط عن إثارة مثل هذا الشعور في الكاتب إما لكثرة الصور السابقة المرسومة عنه أو لفقره خلا جو الأدب من المبتكرين

وقال الثاني : إن الاديب يتكر يوم يثق بمحيطه ويؤمن به ، ويعجز عن الابتكار اذا فقد هذه الثقة فلا يثير فيه العناية

بدرسه وتصويره بلونه الخاص وإنى أرى أن المانع من الابتكار في الأدب العربي ، مزيج من السنين .

ولقد يبدو غريباً لأول وهلة أن تكون الحالة واحدة في المحيط الانكليزي الذي كثرت الصور عنه وفي المحيط العربي الحديث الذي لم ترسم له صورة صحيحة باهرة إلى الآن ، ولكن هذا نتيجة فقدان الشعور بالاستغراب ، أما في الأول فأحسب القارئ قد فهم سيده وهو كثرة الصور الباهرة التي رسمها لهذا المحيط أكابر الكتاب فلم تترك مجالاً للزبد ؛ وأما في الثاني فلأن هذا المحيط لا يمكن أن يثير الكاتب إلى الاهتمام به ما دام فكره مشدوهاً بأنوار أخرى بديعة تأتيه من بعيد .

أرجو أن يتصور القارئ نفسه مكان الاديب العربي اليوم : فهو إذا كان مجدداً لا يزال مسحوراً بصور الأدب الغربي العامرة وما فيها من عبقرية ونبوغ ؛ وإذا كان من دعاة القديم فلا يزال مفتوناً بالصنعة الباهرة وقوة الاندفاع والحياة التي يشهدها عند الجاحظ أو المتنبئ مثلاً . إن هذه الصور تأخذ بلبه فتشغله عن المحيط الذي هو فيه وهو لا يزال محدقاً بها غير ملتفت إلى ما حوله ما دامت أضواؤها الخلابة تبهير عينيه . وإنى لأشعر أن هذا الكاتب المنصف لنفسه ولقارئه إذا حاول رسم صورة لشخص من الذين حوله يقعده عن المحاولة ما يراه من تصوير باهر لا سائذة كبار كمويسان ودكنز . فيقول في نفسه : خير أن أنقل هذه الصور الغربية للناس من أن أقحمهم على مجازفات في التصوير . ويقعد عن الابتكار .

ومثله هنا مثل العاقل لا يشعل سراجيه ما دامت الشمس طالعة ، فهو يكتفي بفتح باب النافذة فتضئ أشعتها المكان وليس في هذا عيب على كبرياء البيت ولا انتقاص لمخترعها العظيم .

ولن يشعل صاحبنا العاقل كبرياءه إلا ساعة تغيب الشمس وهي هنا في الأدب الساعة التي تذهب فيها دهشة الأديب من منتجات الأدب الغربي أو العربي القديم .

نقل الأديب

د. سنان محمد سنان النجاشي

١٠٢ - فيه غيره . . .

ابن السبل البغدادي :

وكأنما الانسان فيه غيره متكوناً والحسن فيه معار
متصرف وله القضاء مصرف ومكلف وكأنه مختار
طوراً وتصوّبه الحظوظ وتارة خطأ تحيل صوابه الأقدار^(١)
تعمى بصيرته ويصر بعد ما لا يسترد الفائق استبصار^(٢)
فتراه يؤخذ قلبه من صدره ويرد فيه وقد جرى المقدار
فيظل يضرب باللامنة نفسه ندماً إذا لعبت به الأفكار
لا يعرف الإفراط في إرادته حتى يبينه له الإصدار

١٠٣ - لم تبلغ قدرتي هذا كله

حدث المبرد : قال رجل لثمامة (القدرى المعتزلى) :
أنت إن شئت قضى فلان حاجتى
فقال ثمامة : أنا قدرى ، ولم تبلغ قدرتي هذا كله ؛ انما
قلت : (إن شئت فعلت)^(٣) ولم أقل : إن شئت فعل فلان

١٠٤ - جبر الأديب جبر وهزله هزل

قال خالد بن يزيد الكاتب : لما بويج ابراهيم بن المهدي
طلبني ، وقد كان يعرفني وكنت متصلاً ببعض أسبابه^(٤) .
فقال : يا خالد ، أئشنتني من شعرك

(١) تحيل صوابه : تحيل صوابه خطأ

(٢) استبصر الشيء : استبانته ، وفيه : تأمل

(٣) في شرح المقامد : « انفتحت المنزلة ومن تابهم من أهل الزينج . . .
على أن العباد موجودون لأعمالهم عتقهم لما بقدرهم ، واجترأ المتأخرون فسموا
العبد خالقاً على الحقيقة »

والجبرية تخالف القدرية في مقالها . في (التبريفات) : الجبرية من الجبر وهو
إستناد فعل العبد إلى الله والجبرية اثنان : متوسطة تثبت للعبد كسباً في الفعل
كالاشعرية ، وخالصة لا تثبت كالجهمية أصحاب جهم بن صفوان

(٤) أسبابه : رجاله (حاشيته)

وهنا يدخل السبب الآخر الذي ذهب اليه الناقد الانكليزي
الثاني ، فإن انهار الأديب العربي بصور الأدب الغربي أو
العربي القديم يبهت أمامه صور محيطه ويضعف ثقته فيه ،
فلا يزال هذا المحيط متردداً بين الغرب والشرق وبين الجديد
والقديم وبين التقاليد والرجعية وقد فقد شخصيته المستقلة
القديمية التي تثير الكاتب إلى التفتي بالمجاهدا ، ولم يكتسب الشخصية
الجديدة التي تثيره إلى الإشادة بقوتها ، ولذلك كان طبعياً أن
يذهب الكتاب والشعراء إلى المحيطين البعيدين ، الغربي
والعربي القديم ، لأن شخصيتيهما أقوى وأتم .

وأظن القارىء أدرك الآن لماذا اندفع شعراء العصر
الأول من الاسلام في الابتكار في الشعر لأن المحيط الجديد
الذي خرج اليه العرب من الجزيرة كان عامراً مدهشاً وهكذا
ذهب أبو نواس المشدود بالمحيط الجديد يفاخر به ويتبكم
على شعراء الجاهلية ، أما ابن المعتز الذي الف حياة النعيم الجديد
إلى حد ما ، فكانت أحسن نفحاته هي التي يستمد وجها من
الصحراء ومعانيها التي أصبحت غريبة عنه تثير استغرابه أكثر
مما حوله ، وإن كانت فضارة هذا المحيط الباقية حافزة له على
عدم التخلي عنه تماماً كما صنع الذين جاءوا بعده ممن ذبلت
أمامهم زهرة المحيط الجديد وعاشوا في العهد المتأخر فرجعوا
إلى تراث الجاهلية يقلدونه تقليداً فاضحاً لأن هذا الشعر
الجاهلي أقوى شخصية وأسطع نوراً من أى شعر جاء بعده

ونعود إلى أدبائنا اليوم ، فهم مهما غالوا في المكابرة
لا يستطيعون إنكار زهدهم واستخفافهم بهذا المحيط الباهت
الألوان الفقير إلى الإيجاد الباهرة ، ولذلك فهم لن يبتكروا
إلا يوم يؤمنون به ، ولا يؤمنون به إلا متى ذهب أثر الدهشة التي
يحدثها الأدب الغربي الجديد أو العربي القديم في أذهانهم ، على
أن ترافق هذا زيادة في سطوع المحيط .

هذه هي موانع الابتكار وهي قوية لا يستطيع الكاتب
مهما كانت عبقريته التخلص منها

خير لأدباء هذا الجيل أن يكتفوا بأدب النقل ويجودوا
فيه ويهشوا المجال للجيل القادم فإن مجدهم لن يقوم إلا على
النقل وهو مجده له خلوده .

(تزييل القاهرة)

محمد بونس